وصف الأسد*

لأبي زبيد الطائي**

جاء أبو زبيد إلى مجلس عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعنده المهاجرون والأنصار يتذاكرون مآثر العرب وأشعارها، فالتفت عثمان إلى أبي زبيد قائلاً: يا أخا تَيِّم المسيح، أسمعنا بعض قولك، فقد أنبئتُ أنكَ تُجيد، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

من مبلغ قومنا النائين إذ شحطوا
أن الفؤادَ إليهم شَيِّق ولع

ووصف فيها الأسد، فقال عثمان: تالله تفتأ تذكر الأسد ما حييت. والله إني لأحسبك جبانًا هدانا[1]، فقال: كلا يا أمير المؤمنين، ولكني رأيت منه منظرًا وشهدت منه مشهدًا لا يبرح ذكره يتجدد في قلبي، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غير ملوم، فقال عثمان: وأنّى كان ذلك؟ قال خرجت في صِيابة أشراف من أفناء قبائل العرب، ذوي هيئة وشارة حسنة، ترتمي بنا المهاري بأكسائها، ونحن نريد الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني ملك الشام[2]، فاخروّط بنا المسير في حمارّة القيظ، حتى إذا عَصَبَت الأفواه، وذبلت الشفاه، وشالت المياه، وأذكت الجوزاء المعزاء، وذاب الصيهد، وصرّ الجندبُ، وضاف العصفورُ الضبَّ في جُحره - أو قال في وجَاره - قال قائلنا: يا أيها الركب: غوِّروا بنا في ضَوج[3] هذا الوادي، وإذا واد قُديديمتنا كثيرُ الدغل، دائم الغلل، شجراؤه مُغنَّة، وأطياره مرنّة، فحططنا رواحلنا في أصول دوحات كنهبلات، وأصبنا من فضلات الزاد، وأتبعناها الماء البارد.

فإنا لنصف حرِّ يومنا ومماطلته، إذ صرَّ أقصى الخيل أذنيه، وفحص الأرض بيديه، فو الله ما لبث أن جال، ثم حمحم فبال، وفعل فعله الذي يليه واحدًا فواحدًا، فتضعضعت الخيلُ، وتكعكعت الإبل، وتقهقرت البغال، فمن نافر بشكاله، وناهض بعقاله، فعلمنا أن قداُتينا وأنه السَّبع[4].

ففزع كل امرئ منا إلى سيفه فاستله من جُربّانه، ثم وقفنا زردقًا، فأقبل يتضالع من بعيد كأنه مجنوبٌ أو فى هجار، لصدره نحيط، ولبلاعيمه غطيط، ولطرفه وميض، ولأرساغه نقيض، كأنما يخبط هشيمًا، وإنما يطأ صريمًا، فإذا هامة كالمجَنّ، وإذا خد كالمسن، وعينان سجراوان، كأنهما سراجان يقدان، وقَصَرةٌ رَبلةٌ، ولهزمةَ رهلَة، وكتدٌ مُغبط[5]، وزورٌ مُفرط، وساعد مجدول، وعضد مفتول، وكفٌ شثنة البراثن، إلى مخالب كالمحاجن، فضرب بيديه فأرهج وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة، وفم أشدقَ كالغار الأخرق، ثم تمطى فأشرع بيديه، وحفز وركيه برجليه، حتى صار ظله مثليه، ثم أقعى فاقشعرّ، ثم تميّل فاكفهرَّ، ثم تجهّم فازبأر[6].

فلا والذي بيته في السماء ما اتقيناه إلا بأول أخ لنا من بني فزارة، كان ضخم الجُزارة، فوقصه ثم نفضه نفضة، فقضقض متنه، ثم جعل يلغُ في دمه، فذمرت أصحابي، فبعد لأي ما استقدموا، فهجهجنا به، فكرّ مقشعرًا بزبرة، كأن بين كتفيه شيهمًا حوليًا، فاختلج رجُلاً أعجر ذا حوايا، فنفضه نفضة تزايلت مفاصله ثم

نهم ففرفر، ثم زفر فبربر، ثم زأر فجرجر، ثم لحظ، فـوالله لخلتُ البـرقَ يتطاير من تحت جُفُونه، من عن شماله ويمينه[٧].

فـأرعـشت الأيدي، واصطكت الأرجل، وأطّت الأضلاع، وارتجت الأسماع وحمّجت العيون، ولحقت البطون، وانخزلت المتون وساءت الظنون[٨].

فـقـال عـثـمـان: اسكت، قطع الله لسانك، فـقـد رَعَبْتَ قلوب المسلمين.

الهوامش:

* شعر أبي زبيد الطائي، جمع وتحقيق د. نوري حمودي القيسي، المقدمة ص٩.

** هو حرملة بن المنذر، شاعر مخضرم من طيء، أدرك عمر بن الخطاب، وجالس عثمان بن عفان (رضي الله عنهما)، ومدح الوليد بن عقبة والي الكوفة. ويقال إنه ظل نصرانيًا حتى أسلم على يديه، وتوفي نحو سنة ٤٠ للهجرة.

(١) الهدان: البليد الوخم الثقيل في الحرب.

(٢) صيابة: خيار الناس وأخلصهم نسبًا. أفناء القبائل: أخلاط منهم. الشارة: اللباس الحسن الجميل. ارتمت بهم: أسرعت بهم، وقذفتهم من بلد إلى بلد. والمهارى، جمع مهرية: وهي إبل عتاق منسوبة إلى مهرة بن حيدان، قبيلة من اليمن، والأكساء جمع كسء: وهو مؤخر كل شيء. يقول تمضي بنا مسرعة متتابعة يتوالى بعضها في أدبار بعض.

(٣) اخروّط به السير: امتد وطال. وحمارة القيظ: شدته كأنه حمى حتى احمر. عصب الفم: يبس ريقه وجف من عطش أو خوف. شالت المياه: قلت ونشفت. المعزاء الأرض الحزنة الكثيرة الحصى. الصيهد: شدة الحر، والجندب: صغار الجراد أو ضرب منه. ضاف: نزل ضيفًا. والوجار: الجحر. الضوج: منعطف الوادي.

(٤) غور القوم: إذا نزلوا للقيلولة نصف النهار. الغائرة القائلة. وضوج الوادي: وهو منعرجة حيث ينعطف إذا انتهى من بين جبلين متضايقين ثم اتسع. قديديمتنا: قدامنا وأمامنا. الدغل: الشجر الكثير الملتف المشتبك، والغلل: الماء الذي يتغلل الأشجار فيسيل ظاهرًا على وجه الأرض ظهورًا قليلاً. الشجراء: الأشجار المتكاثفة. فحص الأرض: ضربها بقدمه، كأنه يحفرها ويقلب ترابها، وذلك عند الفزع. حمحم: صوت صوتًا دون الصهيل، كأنه يكتمه في صدره. والفرس يسول من الفزع. تضعضعت: ذلت وخضعت من الخوف، وتكعكعت: أحجمت وتأخرت إلى وراء من شدة الهيبة. الشكال: قيد تشد به قوائم الفرس. أي، هبّ ليعدو وهو مقيد بشكاله.

(٥) الجرّبال: غمد السيف. وزردق: صف مستو. المجنوب: الذي به ذات الجنب. الهجار: حبل يعقد في يد البعير ورجله في أحد الشقين، ومشية المهجور فيها غمز وميل. والنحيط: زفير ثقيل من الغيظ. النقيض: صوت مفاصل الإنسان والحيوان إذا أثقله الحمل. الصريم: الرملة المنقطعة من معظم الرمل. المجنّ: الترس العريض. المسن: الحجر الذي يسن عليه السيف والسكين وغيرهما. القصرة: العنق وأصل الرقبة. وربلة: ضخمة كثيرة اللحم. اللهزمة: مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن. الكتد: مجمع الكتفين ما بين الكاهل إلى الظهر.

(٦) الزور: ملتقى أطراف عظام الصدر. ومفرط: ممتلئ باللحم، مجدول: تام حسن الطي كأنه مفتول. الشثنة: الخشنة الغليظة. البراثن للأسد: كالأصابع للإنسان وفيها المخالب، وهي الأظفار. والمحاجن، جمع محجن: وهي عصا معقوفة الرأس. أرهج: أثار الرهج، وهو الغبار. أشدق: واسع الشدق. أشرع يديه: مدّهما ورفعهما جدًا. حفزه: دفعه من خلف، وكل ذلك صفة لتهيئه للوثبة، أقعى الأسد والكلب: إذا جلس على استه مفترشًا رجليه، وناصبًا يديه. اقشعر: تقبّض وتجمّع، يستعد للوثوب. تميّل: تمايل. واكفهر: عبس وكلح وجهه. وازبأر: تهيأ للشر وانتفش شعره.

(٧) الجزارة: اليدان والرجلان والعنق، وأصلها من الذبيحة تذبح فيأخذها الجزار أجرة له. وقص عنقه: دقها وكسرها. قضقض الشيء: كسره ودقه وسمع صوت كسر عظامه. ولغ السبع والكلب وغيرهما يلغ: شرب الماء أو الدم بلسانه. ذمر أصحابه: حضهم وشجعهم وحثهم. اللأي: الجهد والمشقة. هجهج بالسبع: صاح به وزجره ليكف. الزبرة: شعر مجتمع على موضع الكاهل من الأسد. الشهيم: ما عظم شوكه من ذكور القنافذ. حولي: أتي عليه حول. اختلج: انتزع من بينهم. أهجر: ضخم عظيم البطن. والحوايا: جمع حاوية. وحاوية البطن: أمعاؤه. بربر: هاج وقذف صوتًا فيه شدة وغضب. وجرجر: ردد الصوت في حنجرته.

(٨) اصطكت: اضطربت وأرعشت وضربت الركبة الركبة. أطت: صوّتت نتيجة الخوف. ارتجت: أغلقت فلم تسمع من الرعب. حمجت: انفتحت وحدقت وتغير معها الوجه، وذلك من الفزع المستبد بها. لحقت: ضمرت. انخزلت: انقطعت، فلم يستطع الرجل أن يقيم صلبه، وكاد يخر. (انظر طبقات ابن سلام/ ٥١٠)، ومجلة الرسالة/ ٩١٠/ ١٩٥٠.